هوامش

الحمام التقليدي (العربي) مكان مهم في موروث التونسيين ونمط عيشهم قديماً وحديثاً. ولا تخلو مدينة من حمام عمومي كانت الأسر تفضله في عقدي الثمانينيات والتسعينيات

حمام دار زغوان بتونس (تييري موناس/ Getty)

الحمّام العربي

إرث صامد منذ 200 عام في تونس

تونس ـ **مريم الناصري**

انتشرت في تونس منذ أكثر من 200 سنة الحمامات خصوصاً في المدن القديمة العتيقة. وبقيت غالبيتها صامدة حتى اليوم وتستقبل زواراً من مختلف الفئات العمرية، رغم انتشار الحمامات العصرية وتجهيز المنازل بحمامات فاخرة. وللحمام التونسي الذي يُسمى الحمام العربي، تاريخ قديم يعود إلى العهد الروماني. وكشفت العديد من الحفريات عن حمامات يعود تاريخها إلى القرن العاشر للميلاد. وتجاور الحمامات، خاصة القديمة، وسط المدن والمحلات التجارية، لذا توجد غالبيتها في المدن العتيقة، وتشهد إقبالاً كبيراً، خصوصاً خلال فصل الشتاء بسبب برودة الطقس. وتتشابه الحمامات في طريقة بنائها، ويضم الحمام في المدخل غرفة صغيرة لصاحبه أو من يعمل فيه، حيث يجري استقبال الناس وجمع رسوم الدخول. وكل حمام مجهّز بغرفة استقبال كبيرة، حيث يغيّر الناس ملابسهم قبل أن يدخلوا إلى المكان المخصص للغسيل.

ويحتوي الحمام على غرف صغيرة تتوسطها غرفة كبيرة. وفي آخر الحمام توجد غرفة تسمى «بيت السخون»، وهي ذات درجة حرارة عالية جداً لمن يرغب في البقاء لبعض الوقت في جوها العابق بالبخار. والهندسة المعمارية للحمامات في تونس لا تختلف عن تلك الموجودة في تركيا أو المغرب، بل فقط في الزينة وفي استعمال أنواع البلاط والجليز (السيراميك). وتشتهر تونس العاصمة بحمام الذهب وحمام الرميمي، ومدينة سوسة بالحمام القديم. وأغلقت بعض الحمامات بسبب ما رُوي عنها من أساطير مخيفة، وأخرى بسبب أعمال الترميم، في حين لا تزال أبواب العديد منها مفتوحة وتحظى بمكانة كبيرة لدى الأهالي والسكان، على غرار حمام سوق العين في مدينة تبرسق بمحافظة باجة، الذي يفوق عمره 200 سنة. يقول حاتم الرياحي، الأستاذ الباحث في التراث، لـ«العربي الجديد»: «يعود تاريخ الحمام إلى القرن 18، ويسمى بالحمام القديم أو سوق العين. وقد أدخلته عائلات تركية هاجرت إلى تونس. ويوجد في المدينة العتيقة بتونس العاصمة حمام بغدادي وحمام سيدي بن عيسى وحمام سوق العين، وهو أشهرها ويتميز بطابعه الروماني في طريقة تسخين المياه، خصوصاً باستخدام الحطب واستعمال نوعية حجارة تحافظ على البخار».

يضيف: «يتميز الحمام بخاصية فريدة تتمثل في وجوده تحت الأرض. وهذه ميزة نادرة، إذ إن وجوده تحت الأرض يساعد أكثر في الحفاظ على البخار. وهو يضم غرفة تسمى الفرناق مستواها أعلى من مستوى الحمام، وتوقد فيها النار. ويُشرف على تسخين الماء شخص يسمى الفرانقي».

ويشرح أن «الحمام ينقسم من الداخل إلى غرف عدة ذات حرارة متدرجة، من بينها غرفة البخار الساخن، وغرفة أكبر ذات درجة حرارة أقل، وغرفة أخرى باردة نوعاً ما، وأيضاً غرفة باردة لتغيير

باختصار

يعود تاريخ الحمام التونسي (العربي) إلى العهد الروماني. وكشفت العديد من الحفريات حمامات شيّدت في القرن العاشر ميلادياً.

■■■

بُنيت الحمامات القديمة في المدن العتيقة حيث المحلات التجارية، لذا تنشط التجارة حولها

■■■

ترتبط الحمامات بالأفراح، فهي تشهد توافداً كبيراً خلال حفلات الأعراس أو الختان أو حتى المناسبات الدينية

الملابس. والتدرج في درجة حرارة الغرف طريقة مدروسة كي يتأقلم جسم الشخص تدريجياً مع درجات الحرارة، ولا يتعرض لاختلافات كبيرة بين السخونة والبرودة لدى خروجه من الحمام. وتوجد في آخر الحمام غرفة جلوس صغيرة، مجهّزة على الطريقة التركية أيضاً، يجلس فيها كل شخص لوقت قليل قبل أن يخرج من الحمام كي يرتاح قليلاً ويعتاد جسمه على درجة حرارة مختلفة عن تلك العالية في الحمام».

ويشير حاتم الرياحي إلى أنّ الحمام حافظ في كل شيء تقليدي وقديم، مثل البلاط والمفارش والزينة، ويتحدث عن أنّ «الحمام في تونس لا يرتبط فقط بمفهوم النظافة والطهارة، بل له أبعاد أخرى اقتصادية واجتماعية. فمن الناحية الاقتصادية بنيت الحمامات القديمة أساساً في المدن العتيقة حيث المحلات التجارية، لذا تنشط التجارة حولها، لا سيما لدى من يبيعون مستلزمات الحمامات من صابون وطين ومفارش وأشياء أخرى يحتاجها كل وافد إلى الحمام. وفي ما يتعلق بالبعد الاجتماعي للحمامات فهي كانت ولا تزال أماكن تلتقي فيه النساء لتبادل الأحاديث والاجتماع. وقديماً كانت هذه الأماكن ذات قيمة أكبر في ظل غياب وسائل الترفيه وأماكن أخرى عمومية. أيضاً شهدت الحمامات نقاشات للرجال في شأن الأمور السياسية، لا سيما في العشرينيات من القرن الماضي». ويذكر أن الحمامات ترتبط أيضاً بالأفراح في تونس، فهي تشهد توافداً كبيراً خلال حفلات الأعراس أو الختان أو حتى المناسبات الدينية. وتقصد العروس الحمام قبل يوم زفافها، ويكون الحمام جزءاً لا بديل عنه ولا تكتمل حفلات الأعراس إلا به، والأمر مماثل للعريس. كما لا يغيب الحمام عن حفلات الختان. ورغم انتشار الحمامات العصرية، لا تزال تلك القديمة صامدة، وتشهد توافد أشخاص من فئات عمرية مختلفة يحبذون هذه الأجواء القديمة، ويحبون الطابع المعماري لتلك الحمامات والطريقة التي بُنيت بها، خصوصاً الحمامات التي لا يزال أصحابها يعتمدون على الحطب لتسخين الماء في الأواني النحاسية الكبيرة منذ أكثر من 100 سنة. ولـ«الحمام العربي» فوائد كبيرة، بحسب ما أوضح الطبيب المتخصص في العلاج بالمياه محمد التليلي، في حديث سابق لـ«العربي الجديد»، وقال: «العلاج بالمياه له قدرة فائقة على مساعدة الأشخاص الذين يعانون من أمراض نفسية غير عميقة ويريدون التخلّص من التوتر النفسي والإنهاك الجسدي، نظراً لقدرة المياه الحارة خصوصاً على تجديد طاقة الجسم النفسية والبدنية في وقت قياسي». يضيف: «تراكم الضغوط النفسية قد يتسبب في تداعيات خطرة تطيح بمناعة الجسم، ما يجعل الأشخاص أكثر عرضة لخطر الأمراض الفيروسية أو غيرها، والمياه علاج طبيعي فعّال لمكافحة الأمراض، والبروتوكولات العلاجية المتخصصة في هذا المجال تعطي نتائج إيجابية بنسبة تصل إلى 80 في المائة. الحمامات التقليدية جزء من منظومة العلاج بالمياه، وهو ما يفسر إقامة هذا الصنف من الحمامات على منابع المياه الطبيعية الساخنة منذ القدم».

وتصنّف تونس بين المراكز المهمة للعلاج بالمياه في العالم، وتستفيد من مخزون مياه معدنية يتوزع على كل مناطقها من خلال عيون وينابيع وحفريات يتجاوز عددها الـ100، بينها 30 ذات مياه باردة تقل درجة حرارتها عن 25 درجة مئوية، و65 مياهها ساخنة تصل درجة حرارتها إلى 45 درجة مئوية. وتقع تلك العيون الساخنة في مناطق الشمال والوسط والجنوب، خصوصاً في المناطق الجبلية والصحراوية.

وأخيراً

وممّا يسعدني...

سعدية مفرح

أشعر براحة وطمأنينة ورضا في مقابلات «البودكاست»، التي تُجرى معي، مقارنةً بمقابلات البرامج التلفزيونية، التي تُشعرني بالتوتّر والتحفّز، سواء أكانت تُبثّ على الهواء مباشرة أم مُسجّلة، وللآن، لا أعرف سبب ذلك، وإن كنت أعتقد أنّ شعور الألفة والاسترسال والعفوية، التي تمنحها مقابلات «البودكاست» للضيف، يمكنها أن تمنحه ذلك الشعور الخفي بالراحة والطمأنينة والرضا.

قبل أيام، أجرى الإعلامي المخضرم إياد الشارخ معي مقابلة في «البودكاست» الخاصّ به، «مرافئ»، الذي يُبثّ عبر منصة سراة الإعلامية في الكويت. ويبدو أنّني تحدّثت في تلك المقابلة كما لم أتحدّث من قبل. حتّى أنّ حصّتي التقليدية من خليط الراحة والرضا والطمأنينة كانت مضاعفة هذه المرة. فهمت ذلك من ردّات الفعل من المتلقّين بعد بثّ المقابلة فوراً. أحتفي، دائماً، بردّات الفعل على ما أكتب وأقول، شعراً ونثراً، وأنتبه لها، بل أبحث عنها وأستدرجها كلّما غابت تاركةً إياي في انتظار الفراغ وحده. أحاول أن أقرأها بموضوعية بعيداً عن مشاعري الخاصّة، وإنّ كانت سلبيةً أو قاسيةً، لكنّني عند ثلاث تغريدات كَتَبَتها إحدى الفتيات في «إكس» تعليقاً على المقابلة، توقّفتُ أكثر مما أفعلُ عادةً.

ورغم أنّني لا أستسيغ إعادة نشر أيّ مديح مباشر يوجّه إلي في وسائل التواصل الاجتماعي، إلّا أنّني أريد أن أعيد الآن نشر هذه التغريدات الثلاث، ليس لأنّها لامست جانباً مُهمّاً من جوانبي الشخصية وحسب، بل لأنّ ذلك الجانب يُعبّر عن أحد أسبابي الشخصية في الاستمرار في الكتابة بالحماسة نفسها التي بدأت بها الرحلة قبل ما يقرب من أربعة عقود من الزمن.

كتبت الفتاة في تغريداتها نصّاً: «انتهيت للتوّ من سماع ومشاهدة المقابلة، ربِ يعطيكِ الصحة والعافية أستاذة/ سعدية، لو تعلمين مكانتك عند قارئات من بيئة مقاربة جداً في جذورها ومحافظتها، كن يتابعن بحرص وفخر وأمل بأن تجد ابنة تلك البيئة فرصتها في التعبير عن ذاتها وإثبات قدراتها وتحقيق أحلامها... كان لظهور الشاعرة/ سعدية مفرح المثقفة الرزينة الرصينة فرحة كبيرة.. لمقالاتها قيمة ونصوصها كانت معبأة بالبصيرة، مضمون ينطلق من معاناة وكفاح إنساني صادق والتزام بمعايير مهنية عالية، مع أن الموجة وقتها كانت تقبل بأقل من ذلك.. ربما كان يكفيها قدر محدود من التلاعب بالألفاظ... أو كان يكفيها التألق على المنابر تحت لأضواء... ذلك كان سيفي بالغرض بعد أن أثبتت سعدية جدارتها وحجزت لاسمها مكاناً لامعاً... لكنها كانت تعي وتدرك ما تريده من هذا الطريق الشاق وكانت تصدق نفسها في الالتزام الثقافي الذي يحمل صاحبه من المشقة والعناء ما تنوء بها الكواهل». هل تتحدّث هذه الفتاة اللطيفة، التي لا تضع اسمها صريحاً في حسابها على منصة إكس، بهذا الحب كلّه والأناقة والجمال عنّي أنا فعلاً؟ ... لن أنشغل بحثاً وراء إجابة مُؤكّدة ترضي غروراً، لا بدّ أنّه تسلّل إلى ذاتي من بين ركام الكلمات الجميلة، ولكنّني أؤكّد أنّ لمثلها أكتب.

> لن أنشغل بحثاً وراء إجابة مُؤكّدة ترضي غروراً، لا بدّ أنّه تسلّل إلى ذاتي من بين ركام الكلمات الجميلة، ولكنّني أؤكّد أنّ لمثلها أكتب

لمثل هذه الفتاة، التي لا بدّ أنّها تشبهني، في الظروف العامة والبيئة الاجتماعية الخاصّة، رغم فارق العمر الكبير بيني وبينها. لمثلها أوجّه رسائلي الصغيرة والكبيرة، المباشرة وغير المباشرة، عندما أكتب عن ضرورة التحلّي بالصبر وتعزيز الثقة بالنفس وعدم اليأس عند فشل المحاولة تلو الأخرى، والانحناء قليلاً للرياح العاتية إن هاجمتنا من أقرب الأبواب والنوافذ.. وما أكثرها حولنا!

لمثلها أؤكّد أهمية الفوز بالحرب في النهاية، وإن خسرنا معركة أو أكثر في البداية.. ومن كلماتها أستمدّ المزيد من الزاد للسير مطمئنّة في وحشة الطريق، وهذا ممّا يُسعدني جدّاً.